

## الاختلاف ومعالم الائتلاف الفكري: رؤية قرآنية

د. زهرة الثابت

كلية الآداب القيروان

تونس

### The abstract

This study aims to exhibit the signs of difference and the points of sameness in the Quran. In fact, the reader of this text notices that difference is a universal phenomenon, which appears first in the sky and became widespread on the earth and in the prophetic lives. However, the Quran is also a text of sameness, when it insists on the tolerance, reject of violence and the respect of the other who is religiously different...

### المقدمة

ما فتى الاختلاف يمثل قضية مهمة وشائكة تفرض نفسها بقوة على كل ثقافة وحضارة، خصوصا في ظل الأوضاع المشحونة اليوم بالصراعات المذهبية والطائفية وتفتشي نزعة التكفير ورفض الآخر المغاير دينيا وإقصائه. لذلك بات الاختلاف "واقعا يخترق كل اجتماع بشري"<sup>1</sup>، لأن الاختلاف إنما هو جلبة فطر عليها الإنسان، وهو مقوم من مقومات الهوية، إذ الآخر يقبع في داخلنا، وهو قدرنا الذي هو أبدا يلاحقنا "لأن الأنا تبني أصلا بالعلاقة مع العالم، والوعي بالذات يمر بالآخر، والشعور بالهوية يبرز في مواجهة الغير"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - علي حرب، نقد الحقيقة، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1993، ص.30.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه، ص.29.

وإنّ المتدبر للنص القرآني يلحظ أنه نص الاختلاف بامتياز بدليل قوله تعالى: "ولو شاء لجعلكم أمة واحدة"<sup>3</sup>، فكان هذا النص "مقال الهوية والاختلاف والجمع والفرق.. مقال الإنسان بكل شروطه وأبعاده وبمختلف وجوهه وأطواره"<sup>4</sup>، ولكنه أيضا كان مقال الائتلاف والوحدة ومحبة الآخر واحترامه في معتقده وطقوسه وعاداته وتقاليده. باختصار إنه خطاب التسامح والاعتراف بالمغاير دينيا سواء كان من داخل الدائرة الإيمانية أم من خارجها.

لذلك راهنا في هذه الورقة العلمية على تقصي ملامح الاختلاف في هذا النص الديني المقدس والوقوف عند مظاهر الائتلاف فيه. فما مفهوم الاختلاف؟ وماهي تجلياته؟ ما المراد بالائتلاف؟ وماهي وجوهه؟

### ❏ - الاختلاف العقدي: مفهومه ومظاهره

#### ❶ - في ضبط مصطلح الاختلاف لغة واصطلاحا

جاء في لسان العرب أن التخالف والاختلاف واحد فقولك "تخالف الأمران واختلفا لم يتفقا وكل ما لم يتساو فقد تخالف واختلف"<sup>5</sup>، والاختلاف نقيض الاتفاق<sup>6</sup>، وهو غير الخلاف "والفرق بينه وبين الخلاف أن الاختلاف يستعمل في القول المبني على دليل، على حين أن الخلاف لا يستعمل إلا فيما لا دليل عليه، والاختلاف عند بعض المتكلمين هو كون الموجودين غير متماثلين<sup>7</sup>. ويضيف الكفوي أن الاختلاف "هو أن يكون الطريق مختلفا والمقصود واحدا وهو ما يستند إلى دليل والاختلاف من آثار الرحمة"<sup>8</sup>. وبناء على ما تقدم إذن فالاختلاف هو المفارقة وعدم التماثل والمغايرة. واللافت للانتباه أن هذا المصطلح قد

3 - النحل: 93.

4 - المرجع نفسه، ص.47.

5 - انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (خلف).

6 - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت/ لبنان، 1982، الجزء 1، ص.47.

7 - المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

8 - أبو البقاء الكفوي، الكليات، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت/ لبنان، الطبعة الثانية 1998، ص.61.

تواتر حضوره في القرآن الكريم بصورة مكثفة وباشتقاقات متنوعة فجاء مصدرا واسم فاعل مثلما يجليه

الجدول التالي<sup>9</sup>:

الاسم المشتق	السورة ورقمها	الآية عددها
اختلاف	-البقرة(2).	- الآية 164.
	-آل عمران(3).	- الآية 190.
	- يونس(10).	- الآية 6.
	-المؤمنون(23).	- الآية 80.
	-الروم(30).	- الآية 22.
	-الجاثية(45).	- الآية 5.
	-النساء(4).	- الآية 82.
مختلف / مختلفون	-النحل(16).	- الآية 69.
	-فاطر(35).	- الآية 27 / 28.
	-الذاريات(51).	- الآية 8.
	-الأنعام(6).	- الآية 141.
	- النحل(16).	- الآية 13.
	-فاطر(35).	- الآية 27.
	-الزمر(39).	- الآية 21.

<sup>9</sup> - استفدنا في رسم هذا الجدول من محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت، مادة (خلف)ص. 240-241.

- الآية 3.	-النبأ(78).	
- الآية 118.	-هود(11).	

وعليه إذن فالاختلاف مفهوم جوهري في نص الوحي الإسلامي، بل يمكن اعتبار هذا النص تجوزاً بيان اختلاف أ لم يأتي فيه قوله: "وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه"<sup>10</sup>. فإذا كان القرآن الكريم على هذا النحو مما وصفنا فما هي مظاهر الاختلاف فيه؟.

## ② - مظاهر الاختلاف العقدي في القرآن الكريم

زخر النص القرآني بعدد الآيات التي تثبت معنى الاختلاف وأسطته. وهو اختلاف توزع بين فضاءين مختلفين متقابلين هما فضاء السماء وفضاء الأرض أو قل العالم المقدس والعالم المدنّس. إذ يبدو من الجلي والواضح أن هذا المفهوم إنما انبثق في العالم العلوي عالم الخلود والصفاء ثم سرعان ما تلاشى هذا المفهوم ليتأصل في العالم الدنيوي السفلي.

• الاختلاف في العالم السماوي: وهو اختلاف أسسه إبليس حينما تمرد على الرب، وثبته آدم لما أكل من الشجرة المحرمة.

♦ - في البدء كان الاختلاف أو تمرد إبليس على عرش المقدس: من الواضح في نص "القرآن الكريم" أن إبليس كان أول مؤسس لظاهرة الاختلاف بامتياز، وهو اختلاف يجليه خلاف إبليس مع الله لتفضيله آدم عليه، حينما أمره بالسجود له فرفض. يقول تعالى: "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ"<sup>11</sup>. فالاختلاف إذن كان بإعلان إبليس العصيان والتمرد على عرش المقدس، لأن آدم أصبح له منافسا خطيرا في عالم الخلد، وأخشى ما يخشاه أن يفقد حظوته عند الله وهو الذي كان يحظى بمنزلة أثيرة في الملكوت الأعلى.

<sup>10</sup> - النحل 16: 64.

<sup>11</sup> - البقرة 2: 34.

لذلك أعلن إبليس مروقه عن الربّ مبررا سلوكه باختلافه ماهية ومادة خلق عن آدم، مرددا: "لَمْ أَكُنْ لِأَسْجَدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ"<sup>12</sup>. بل إنه أعلن أفضليته عن آدم جهرا ودون مواراة قائلا: "أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ"<sup>13</sup>. وقد كانت هذه الآية شعاره الصريح لتثبيت اختلافه عن آدم وإعلان صراعه معه إذ هو قد ناصبه العداة وتوعده<sup>14</sup> بإخراجه هو وزوجه من الجنة، حينما سيوسوس له ليخترق المحظور ويأكل من الشجرة التي حرمها الله تعالى. لذلك أخرجته الرب من ملكوته صاغرا مذءوما مدحورا، وشرف آدم بالسكن في الجنة، وخضعت النار للتراب "ولم يشفع لإبليس طول الخدمة ولم تخلُ حداثة العهد دون بلوغ آدم أعلى المراتب، فزال وهج النار بلزاجة الطين، وانقلبت متعة القرب من العرش سابقا إلى غصة محرجة وإهانة لحقت مجد إبليس"<sup>15</sup>.

♦ - عصيان آدم وأكله من الشجرة المحرمة: تعتبر قصة خطيئة آدم النموذج الباهر والأميز الذي أسس لمعنى الاختلاف بعد قصة عصيان إبليس لأمر الله. والاختلاف أسس له امتحان الأكل من الشجرة المحرمة، إذ حظر الله تعالى على آدم وزوجه الاقتراب من الشجرة وتذوق ثمرتها قائلا: "يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ"<sup>16</sup>.

ولكنّ آدم اخترق هذا الحظر ونكث العهد مع الله ليعلن مغايته عن المقدس ومفارقته له، وهي مغايرة لا يمكن أن تحصل إلا بمعرفة كالإله إذ "المعرفة التي تميز بها آدم كانت معرفة نسبية، لقد علم ما كان يجب أن يعلم، وبقي جاهلا بغير ذلك، وغير ذلك تمثله هذه الشجرة التي طلب إليه أن لا يقربها"<sup>17</sup>.

12 - الحجر 15: 33.

13 - الأعراف 7: 12.

14 - جاء في سورة الأعراف قوله: "قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين". (الأعراف 7: 16-17)

15 - فتحي مسكيني، الشيطان في الديانات السماوية الصورة والرمز، الحكمة للطباعة والنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، الطبعة الأولى 2014، ص.99.

16 - الأعراف 7: 19.

17 - وحيد السعفي، العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن، الأوائل للنشر والتوزيع، سوريا/ دمشق، الطبعة الأولى، أيار 2006، ص.88.

والطريف أن الاختلاف عن الرب باركته حواء، حينما قاسمت آدم المحذور وشاركته الأكل، فأصبحت كزوجها حاملة في جسدها لثلمة لا بد من سدها ولعورة لا بد من سترها لأنها فوضى في عالم المقدس، لذلك همّت هي وزوجها "يخصفان عليهما من ورق الجنة"<sup>18</sup> معلنين ندمهما الشديد عمّا اقترفت يداهما من معصية للخالق، مرددين "ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين"<sup>19</sup>. فوجه الاختلاف إذن إنما يكمن في إعلان آدم وزوجه استقلالهما عن الله وتمردهما عن عرش المقدس، لذلك سيقضي الله بنزولهما إلى الأرض حتى يكونا عنوانين للاختلاف في الحياة الدنيا. إذ سيصبح الاختلاف سنة الله في خلقه وستتوارث ذرية آدم الاختلاف حتى يغدو ناموسا في الحياة على وجه البسيطة.

• **الاختلاف في العالم الأرضي:** وهو الاختلاف الذي ميز خلق الكون وعليه فطر الإنسان.

#### ✍-الاختلاف سنة الكون

لا شك أن الاختلاف حقيقة أكدها الإسلام وثبتها القرآن الكريم. فالمتصفح لنص الوحي الإسلامي يلحظ دون كبير عناء أن هذا الاختلاف إنما هو سنة كونية وقانون من قوانين الوجود، ناهيك أن الله قد خلق الكون مختلفا فأنشأ السماوات والأرض في ستة أيام<sup>20</sup> ثم خلق الليل والنهار<sup>21</sup> والشمس والقمر<sup>22</sup> والنجوم وسخر الجبال والبحار والأنهار والأنعام والدواب. ثم خلق الإنسان "مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً"<sup>23</sup>. فكانت الإنسانية قاطبة واحدة ولكنها تختلف بحسب جنسها بدليل قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"<sup>24</sup>.

18 - الأعراف 7: 22.

19 - الأعراف 7: 23.

20 - انظر الأعراف 7: 54.

21 - انظر آل عمران 3: 190.

22 - انظر الأنبياء: 33

23 - النساء 4: 1.

24 - الحجرات 49: 13.

فوجه الاختلاف الأول إذن جنسي بالأساس ومنه ستتسل سائر درجات التفاوت والتباين بين النشء. فالله قد خلق البشرية من جنسين مختلفين، من ماء الذكر وماء الأنثى ليقيم الدليل على أن الاختلاف إنما هو في أصل النشأة، ومن هذا الاختلاف في الخلق تكونت الشعوب والقبائل المختلفة التي تمايزت إلى أمم وشعوب وحضارات. بل إن هذه المجتمعات الإنسانية تباينت بحسب عرقها ولسانها مثلما تجليه الآية "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ"<sup>25</sup>، كما تفاوتت بحسب منزلتها الاجتماعية بدليل قوله تعالى: "أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون"<sup>26</sup>. بل إنها اختلفت بحسب الدين فكان لكل مجموعة بشرية دينها الخاص بها مثلما تفره الآية: "لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة"<sup>27</sup>.

ويستشف مما تقدم أن الاختلاف طبيعي وهو "الأصل والمبتدى"<sup>28</sup> على حدّ تعبير علي حرب، إذ الوجود مبني على الفرق والاختلاف والتنوع والتعدد، لذلك سيكون الاختلاف أمرا مشروعاً منذ بدء الخليقة بين آدم وذريته، وبين الأنبياء وأقوامهم.

#### ✍ - الاختلاف بين ذرية آدم

إن القارئ الحصيف لقصص الأنبياء ليتنبه إلى أن الاختلاف كان قدر الأنبياء والرسل في حيواتهم الاجتماعية، فما من نبي إلا وصدت دعوته لأن المعارضة جبلة في الإنسان متأصلة فيه والمخالفة مغروسة في كينونته. لذلك لقي الأنبياء عننا شديدا في مواجهة أقوامهم ولعل تجارب إبراهيم ونوح ولوط ويوسف وموسى وصالح ومحمد تقوم حججا على ذلك.

25 - الروم 30: 22.

26 - الزخرف 43: 32.

27 - المائدة 5: 48.

28 - علي حرب، نقد الحقيقة، ص. 31.



• اختلاف إبراهيم مع أبيه وقومه: وهو اختلاف عقدي بالأساس ولده صراع إبراهيم مع شعبه لأنه مسكون بقوة الوحي رافض لواقع الوثن والأصنام<sup>29</sup> الذي شيده أبوه وباركته الجماعة. فهو القائل مخاطبا أباه وقومه مستنكرا آلهتهم وتمثيلهم التي يعبدون: "ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون.. قال لقد كنتم وآباؤكم في ضلال مبين"<sup>30</sup>. ليضيف متأففا: "أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم، أف لكم لما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون"<sup>31</sup>.

فاختلاف إبراهيم مرده غيرته على المقدس ورفضه واقع الدنس، ذلك الواقع الذي أسسه الأب آزر<sup>32</sup> وثبتته الجماعة حين عكفت على عبادة الأصنام. لذلك حدث الاصطدام بين إبراهيم وقومه لأنه كان "محملا مجموعة من القيم والمبادئ والتعاليم المناقضة لما ساد القوم من طقوس وأعراف"<sup>33</sup>، وهو مكلف ب"استئصال ما تجذر في النفوس إذ هدفه هو القضاء على جميع مظاهر الوثن من صنم وكوكب وحجر وحيوان بعد أن ارتقى بها القوم إلى مصاف المعبودات"<sup>34</sup>. ولكن رغم تعلق همة النبي إبراهيم بتثبيت المقدس واختلافه عن الجماعة التي احتفت بالآلهة الأصنام فجددت العهد مع الدين الحرام إلا أنه كان مرنا في تعامله مع الآخر المغاير دينيا، فاستعمل الموعظة الحسنة والكلمة الطيبة ليساوم بها لأن منتهى ما كان يصبو إليه هذا النبي هو الائتلاف ولا ائتلاف إلا ب"فرض نظام معرفي جديد يطعن في النظام المعرفي السابق والأب القائم عليه"<sup>35</sup>.

• اختلاف نوح مع قومه: تعتبر قصة نوح مع قومه الكافر نموذجا باهرا في تأصيل معنى الاختلاف، بل تجربة فريدة حيكّت على سمتها تقريبا كل تجارب الأنبياء التي ستؤسس بدورها لمقولة الاختلاف. لذلك

29 - انظر إبراهيم: 35-36.

30 - الأنبياء: 52-54.

31 - الأنبياء: 66-67.

32 - الأنعام: 74

33 - حمادي المسعودي، فنيات قصص الأنبياء في التراث العربي، مسكياتي للنشر، تونس، الطبعة الأولى، أوت 2007، ص.378.

34 - المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

35 - وحيد السعفي، العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن، ص.388.

ارتقت هذه التجربة إلى مصاف النموذج الأصلي (L'archétype) للاختلاف بعد أن أصلته تجربة آدم في العالم السماوي.

والاختلاف في هذه القصة النبوية يجليه التقابل الدائم والصراع المكين بين نوح وأهله الذين "مكروا مكرا كبيرا"<sup>36</sup>، فعصوا الله واتخذوا من ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر<sup>37</sup> آلهة يعبدونها. فكانوا قوما كافرين<sup>38</sup>، فاسقين<sup>39</sup>، أسسوا عالما مشركا جحودا دنسته الوثنية العمياء. فكان الاختلاف والتنافر بينهم وبين نوح الذي كان يهفو إلى تشييد عالم طاهر نقي بتأصيل البعد الروحي فيه.

والاختلاف في قصة نوح نلمسه أيضا في صدّ القوم له وامتناعهم عن مجاراته إذ كذبوا بدعوته مردّدين: "ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم من فضل بل نظنكم كاذبين"<sup>40</sup> وسفهوه وسخروا منه و"جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا"<sup>41</sup>. بل إنهم قد اتهموه بالجنون<sup>42</sup> وكادوا له كيذا عظيما<sup>43</sup>.

فجوهر الاختلاف في هذه القصة بيّن ومردّه رفض الآخر وادعاء الأصالة وامتلاك الحقيقة المطلقة. لذلك كانت الهوة بين الطرفين سحيقة، ولا سبيل لرفع هذا التصدع ورتق هذا الشرخ البائن إلا بتدخل الحكمة الإلهية وإعلان الطوفان للارتحال من العالم المدنس إلى العالم المقدس ومن الخلاف إلى الوفاق، ومن الفجور إلى الطهر إذ "لا شيء مثل الماء يرفع التشويه، يرفع الدنس يرفع العماء.. غمر الماء الأرض والناس الكفر والوثنية العمياء، ثم انطلقت الحياة أخرى في ظل النظام وعبادة الرب وبعث الأنبياء بالتوحيد

36 - نوح 71: 22.

37 - نوح 71: 23.

38 - هود 11: 42.

39 - الذاريات 51: 46.

40 - هود 11: 27.

41 - نوح 71: 7.

42 - القمر 54: 9.

43 - المؤمنون 23: 25.

والحنيفية السمحاء"<sup>44</sup>. باختصار إن الاختلاف في تجربة نوح كان ضرورة لا بد منها لاستمرار الحياة من جديد وانتصار الخير على الشر وعموم الأمن والرخاء والبركة، كما كان الاختلاف أيضا عنوانا للتصالح مع المقدس والتطلع إلى العالم السرمدى.

• اختلاف لوط مع قومه: يلحظ المتدبر لقصة لوط في "القرآن الكريم" أن الاختلاف منشأه الصدام بين نظامين مفارقين: نظام المتعة المحظورة الذي أسسه قوم لوط ونظام الشهوة المنظمة الذي تبناه النبي لوط. إذ يبدو أن معضلة قوم لوط حسب ما تجليه سور الأعراف وهود والحجر والأنبياء والشعراء والنمل إنما تكمن في إتيان الرجال شهوة<sup>45</sup> وإتيان الذكور<sup>46</sup> وعمل الخبائث<sup>47</sup>. فقوم لوط إنما يستهيمون بإقامة علاقة جنسية مع الجنس الذكوري المثيل، ويحلّمون أنفسهم بالاستمتاع بالقضيب بدل الفرج. فتخرج الذكورة بذلك عن الحدود التي رسمت لها وتنتقل من "عنصر إنتاج تناسلي إلى أداة متعة غير منتجة"<sup>48</sup>.

وتصبح المتعة الجنسية دنسا وتشويها لحقيقة الجنس التي أقرها الله، إنها تجديف ضد الطبيعة وهي ضرب من ضروب الشذوذ والفوضى التي يابها المقدس على لسان نبيه لوط الذي اختلف عن قومه، حينما رفض الجنس الفاسد وراهن على اقتصاد المتعة وعلى حسن استعمال المتع على حد تعبير فوكو. وأكد على معنى الطهيرة التي لا يمكن أن تتحقق إلا إذا آمن قومه بأن الأصل في الأشياء أن تكون "الذكورة مظنة الفعل والأنوثة مظنة الانفعال"<sup>49</sup>. وبأن "في اكتفاء الرجال بالرجال انقطاع النسل، وفي انقطاع النسل بطلان جميع الدين والدنيا"<sup>50</sup>.

44 - وحيد السعفي، في قراءة الخطاب الديني، نجمة الدراسات والنشر والتوزيع، تونس، 2008، ص.143.

45 - انظر الأعراف 7: 81 والنمل 27: 54.

46 - انظر الشعراء 26: 165.

47 - انظر الأنبياء 21: 74.

48 - العروسي لسمر، الجاحظ من الجنسانية إلى المبتاجنسانية، كتابات معاصرة، عدد69، ص.114.

49 - فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت، المجلد السابع، ص.176.

50 - الجاحظ، رسالة المتعلمين، ضمن رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى 1991، ص.43(الفصل 9: في ذم اللواط).

• اختلاف يوسف مع زوجة عزيز مصر: يلوح لنا الاختلاف في قصة يوسف مع امرأة العزيز فيما فطر عليه الطرفان من مبادئ وقيم متباينة. فامرأة العزيز قد هامت عشقا بيوسف فغلقت دونه الأبواب، محاولة مراودته عن نفسه لأن حبه قد تعلق بشغاف قلبها، ثم إنها كانت ترعى الجنس في نهم شديد، لذلك قدت قميصه من دبر محاولة النفاذ نحو الداخل، لأن الإثارة إنما تكمن في المحتجب المتواري تحت القميص، في العري أو قل في "المكان الذي يظهر من ثناؤب الثياب"<sup>51</sup> على حد تعبير بارت (Barthes).

وحركة القد تخفي في الحقيقة عنف التهافت على الجنس، إنه "الإفراط المفني للجسد، الذهاب به إلى أقصى حدوده، المتنافي مع مبدأ الاقتصاد أو مبدأ تصريف الطاقة، بحيث لا يكون الالتذاذ مجرد راحة من التوتر"<sup>52</sup>. ولغة الإفراط هذه إنما نفسرها بانجذاب زوجة عزيز مصر إلى جسد يوسف الساحر الجميل المليء بالوعود، والذي مارس سلطته على الأنثى العاشقة، فظلت مأخوذة به لإشباع نهمها الجنسي غير أبهة بنواميس الدين وبسلطة المجتمع. خلافا ليوسف المعشوق الذي بدا مارقا عن النظام الذي شيدته امرأة العزيز لأنها كانت عنوان الفجور والجنس الحرام إذ لا "إيمان يلفها لفا و(لا)حياء جميلا يستر وجهها"<sup>53</sup>.

• اختلاف موسى مع فرعون: وهو اختلاف مرده الوضع الظلامي الكافر والدنس الذي شيده فرعون حينما طغى وتجبر فكان من المفسدين<sup>54</sup>، إذ ذبح أبناء شعبه واستحي نساءهم لأنه كان "غولا منتصبا أمام كل ذكر وسلطانا يخضع لأمره ونزواته وشهوته العارمة كل أنثى"<sup>55</sup> وسامهم سوء العذاب<sup>56</sup>، بل إنه قد كفر برب موسى وهزئ منه مدعيا الألوهية قائلا مخاطبا شعبه في نبرة ساخرة: "يا أيها الملأ ما علمت لكم من

51 - انظر:

Roland Barthes, Le plaisir du texte, éditions du Seuil, p.31.

52 - صوفية السحيري بن حنيرة، الجسد والمجتمع، دار محمد علي الحامي، الطبعة الأولى 2008، ص.51.

53 - وحيد السعفي، العجيب والغريب، ص.270.

54 - القصص 28: 4.

55 - وحيد السعفي، العجيب والغريب، ص.587.

56 - انظر الأعراف 7: 141.

إله غيري، فأوقد لي يا هامان على الطين، فاجعل لي صرحا لعلني أطلع إلى إله موسى، وإني لأظنه من الكاذبين"57.

فسعى موسى بأمر من ربه إلى هدايته ليستبدل الفساد نظاما والاستكبار إذعانا والعدوان محبة، لكن فرعون أبى واستكبر لأن موسى في نظره خطر يهدد أمنه داخل صرحه العظيم، وإذن فلا بد من مواجهته والعمل على إخضاعه وتركيعه لنفوذه لذلك اتهمه بالسحر مرددا: "إن هذا لساحر عليم"58. باختصار إن الاختلاف في هذه القصة النبوية إنما هو اختلاف بين نظامين مفارقين أحدهما طاهر لأنه موصول بذات المقدس ثبته موسى النبي والآخر دنس كافر جاحد كرسه فرعون وأتباعه.

• اختلاف صالح مع قوم ثمود: أسست قصة صالح مع قومه معنى الاختلاف الذي أجلاه الصراع بين هذا النبي وثمرود حينما سعى إلى هدي هؤلاء القوم إلى الحق ودعاهم إلى عبادة الله، بل إنه سعى إلى اختبار مدى إيمانهم، فامتحنهم في ناقة الله التي طلب منهم أن يحافظوا عليها، فلا يمسونها بسوء حتى يبرهنوا عن مدى صدق إيمانهم قائلا: "يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَمَنْ رَوَاهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ، وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"59.

ولكنهم أخلفوا الوعد حين كذبت ثمود بدعوى النبي صالح وهمت بذبح الناقة. فغضب الله عليهم غضبا شديدا مثلما توضحه الآية: "كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا، إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا، فَكَذَّبُوهُ، فَغَارُوهَا، فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا"60. فمكمن الاختلاف إذن في هذه القصة إنما يكمن في حرص النبي صالح على طاعة الله وصدق محبته له في مقابل جحود قوم ثمود

57 - القصص 28: 38.

58 - الشعراء 26: 34.

59 - الأعراف 7: 73.

60 - الشمس 91: من 11 إلى 15.

وإمعانهم في الطغيان إذ كانوا "شعبا كافرا هداهم الله (لكنهم) استحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون"<sup>61</sup>، مثلما تبينه الآية السابعة عشرة من سورة "فصلت".

• اختلاف محمد مع قريش: إن المتتبع لحيثيات قصة محمد مع قومه ليتنبه ببسر إلى أنها قصة قدت على نظير قصص الأنبياء السابقين، وأن الاختلاف فيها إنما هو امتداد للاختلاف الذي ألفيناه في هذه القصص. إذ يبدو أن محمدا إنما أتى ليهدي قومه الضالين، ويبين الحق فقد جاء قوله تعالى: "هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا"<sup>62</sup>، لكنه لقي من هؤلاء القوم عنتا كبيرا لأنه "قام فيهم يدعو إلى رب لا بد أن تخضع له الأرض، فهاج الشعب وماج، وقامت حرب أجاج بين نداءين متقابلين: هذا قديم يواصل ما خطه الأجداد وذلك يرسم خطة مستحدثة في رحاب الدين الجديد"<sup>63</sup>.

فقريش قد اختلفت مع النبي محمد حين أعلنت مروقها عن دينه فنكلت بالرسول ومارست عليه شتى الإكراهات بأن سخرت منه وحاولت قتله وحاصرته في بيته، بل أخرجته منه عنوة. فقد جاء في سورة الأنفال قوله: "وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك أو يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين"<sup>64</sup>. والإخراج عزل وإقصاء ورفض لأن غاية ما تصبو إليه قريش أن تحافظ على الواقع الوثني الذي شيدته، واقع مناة واللات والعزى التي ما أنزل الله بها من سلطان<sup>65</sup>، وواقع الجهل والبطش والظلامية الذي سيعمل النبي محمد على نفسه وتقويض أسسه، لأنه يختلف عن فحوى رسالته التي أمر بتبليغها وهي رسالة تنهض في جوهرها على وحدانية الله وقوته<sup>66</sup>، وعلى أن الإسلام هو الدين<sup>67</sup>. لذلك ظل النبي في صراع

61 - وحيد السعفي، في قراءة الخطاب الديني، ص. 92.

62 - الفتح 48: 28.

63 - وحيد السعفي، العجيب والغريب، ص. 94.

64 - الأنفال 8: 30.

65 - انظر النجم 63: من 19 إلى 23.

66 - انظر الإخلاص 112: 4/3/2/1.

67 - انظر آل عمران 3: 19.

مستमित ضد قريش لأنه مختلف عنها ودينه مفارق لها، بل هو الدين الذي نفى كل دين ونصب "الله سلطانا على الكون فانتفى كل سلطان غيره"<sup>68</sup>.

### ❏ - الائتلاف الفكري: مفهومه ومظاهره

❶ - في حد الائتلاف: الائتلاف مصدر مزيد من الفعل ائتلف وهو يتصل بالجر (أ.ل.ف) والفعل ألف ومنه أَلْفٌ و"أَلَفْتُ بينهم تَأْلِيفًا إذ اجتمعتَ بينهم بعد تفرق وألّفت الشيء تَأْلِيفًا إذا وصلت بعضه ببعض"<sup>69</sup>. فالائتلاف إذن هو الاجتماع والوصل والألفة والوفاق وهو ضد الاختلاف. ويلحظ القارئ الحصيف لنص القرآن الكريم أن نسبة تواتر عبارة "ألف" بدت قليلة مقارنة بعبارة "اختلف" وما تناسل منها من اشتقاقات صرفية إذ لم يقع التنصيص على معنى التأليف إلا في ثلاث مناسبات في آل عمران<sup>70</sup> والأنفال<sup>71</sup> والنور<sup>72</sup>. لكننا نعثر في ثنايا هذا النص على عبارات دالة على معنى التأليف والوفاق من قبيل "اجتمعت" و"اعتصموا" و"لا تفرقوا".

### ❷ - مظاهر الائتلاف الفكري في القرآن الكريم

رغم أن "القرآن الكريم" قد أكد على أن الاختلاف هو أس الكون وأصل الخلق، وهو جيلة عليها فطر الإنسان إذ الاختلاف واقع اخترق حيوات الأنبياء والرسل، إلا أنه أيضا دعا إلى الائتلاف والوحدة والتواصل مع الآخر لأنه قدرنا الذي لا فكاك لنا منه ثم إن الهوية لا تدرك إلا بالآخر. ومن وجوه الائتلاف في القرآن نذكر:

68 - وحيد السعفي، في قراءة الخطاب الديني، ص.96.

69 - ابن منظور، لسان العرب، مادة (ألف).

70 - انظر آل عمران 3: 103.

71 - انظر الأنفال 8: 63.

72 - انظر النور 24: 34.

• نبيذ العنف والتباغض: نبيذ "القرآن الكريم" الكره والعداوة بين الناس قائلًا: "فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ"<sup>73</sup>، وحذر من مغبة التناحر والتفرقة والتنازع. فتواترت في هذا النص عبارات من قبيل "لا تتفرقوا"<sup>74</sup> و "لا تنازعوا"<sup>75</sup>، ودعا إلى المحبة والاجتماع على الحق مردداً: "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا"<sup>76</sup>. كما رغب النص القرآني في حياة الدعة والسلم قائلًا: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ"<sup>77</sup>، لذلك حرم قتال غير المسلمين والرفق بهم عملاً بقوله تعالى: "لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ، وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ"<sup>78</sup>، وأقر حق الحياة لكافة الناس وأكد على ضرورة حفظ النفس لأنها حق، ثم إنها مقصد من مقاصد الإسلام كما تثبته الآية القرآنية: "من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل، أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض، فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً"<sup>79</sup>.

- إقرار التعددية الدينية وحرية المعتقد: إن المتأمل في ثنايا نص القرآن الكريم ليجتنبه إلى حرص هذا النص على جعل حرية المعتقد مقصداً من مقاصده السامية. ولعل الآية "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ"<sup>80</sup>، تنهض دليلاً قاطعاً على ذلك. فالقرآن على هذا النحو ينبذ التعصب وإجبار الناس على اعتناق الإسلام عنوة لأنه لو شاء الله "لَا مَنَ مِنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا"<sup>81</sup>. لذلك خاطب الله نبيه قائلًا: "أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ"<sup>82</sup>، ليستطرد قائلًا: "فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ"<sup>83</sup>، وما

73 - الأنفال 8: 1.

74 - انظر آل عمران 3: 105.

75 - انظر الأنفال 8: 46.

76 - آل عمران 3: 103.

77 - البقرة 2: 208.

78 - الممتحنة 60: 8.

79 - المائدة 5: 32.

80 - البقرة 2: 256.

81 - يونس 10: 99.

82 - يونس 10: 99.

83 - الغاشية 88: 21.



كان من الرسول محمد إلا الاستجابة لنداء ربه حين خاطب قومه قائلاً: "لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ"<sup>84</sup> وقوله "مَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ"<sup>85</sup>.

ومعنى ذلك أن محمداً كان مؤمناً بحرية المعتقد حريصاً على تثبيتها، وأن نص الوحي الإسلامي إنما يسعى في منطوق آياته إلى تأكيد معنى الاختلاف العقدي، لذلك اعترف بكل الملل والنحل وسائر الديانات من اليهود والنصارى والمجوس والصابئة حتى يؤلف بينهم، وحتى يبرهن على أن التسامح سمة متأصلة في الإسلام، وأن الإيمان أمر شخصي لا يمكن التحكم فيه بفرضه أو نزعها من الضمائر والدعوة إليه "إذا لم تنجح تحت منظومة الحرية فإنها لن تنجح تحت ضغط الإكراه وسلطة الإرهاب التي تشيع الخوف والنفاق والجبن"<sup>86</sup>

- حسن التعامل مع الآخر المغاير دينياً: حرص "القرآن الكريم" على الاعتراف بالآخر المغاير دينياً، فلم يجب الديانات السابقة له لأنها تتفق في الدعوة إلى التوحيد ولم يفرق بينها. بل أقرها واعترف بها قائلاً: "قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ"<sup>87</sup>. ومعنى ذلك أن الاعتراف بمعتقد الآخر وديانته إنما هو شرط من شروط تمام الإيمان واستقامته. وأباح نص الوحي الإسلامي أيضاً التعايش المشترك مع أهل الكتاب فلم يمانع مثلاً مؤاكلتهم فهو القائل: "اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم"<sup>88</sup>. كما لم يمانع أيضاً مصاهرتهم حينما أضاف وفي نفس الآية: "والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم"<sup>89</sup>.

84 - الكافرون 109: 6.

85 - الكهف 18: 29.

86 - منجية السواحي، الأنسنة والحوار والتعايش في الإسلام، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، الطبعة الأولى 2008، ص.111.

87 - البقرة 2: 136.

88 - المائدة 5: 5.

89 - المائدة 5: 5.

- حسن الجدل وأدب الحوار: عمل "القرآن الكريم" على تثبيت ثقافة الحوار في التعامل مع الآخر المغاير دينيا لأنه مختلف ولأن "الاختلاف مدعاة إلى المجادلة والمنازعة"<sup>90</sup>. لذلك حرص على حسن الجدل والتحلي باللطف واللين في مخاطبة الآخر لمدّ جسور التواصل معه بدليل قوله: "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن"<sup>91</sup>.

وخص القرآن أهل الكتاب بحسن الجدل لأنهم أعرضوا عن الإسلام وأظهروا لرسوله الإنكار والمكابرة لذلك خاطب القرآن محمدا قائلا: "وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"<sup>92</sup>، بل أنه اعتبر حسن المحاوره وجها من وجوه التسامح الديني لذلك حذّر القرآن الكريم محمدا من مغبة القسوة والتعصب والعنف في التعامل مع الآخر فقال: "فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعف عنهم واستغفر لهم"<sup>93</sup>. فاللين مطلوب لأن اليهود أنكروا الأديان الأخرى وقتلوا الأنبياء<sup>94</sup>، واللطف محمود لأن النصارى اعتقدوا في التثليث وبنوة المسيح وألوهية مريم لذلك حث القرآن على حسن محاورتهم لإقناعهم بأصالة الإسلام وبطلان مزاعمهم.

### خاتمة البحث

نخلص ممّا تقدم إذن إلى أن الاختلاف والإنتلاف حقيقة ثابتة لا يمكن نكرانها في نص "القرآن الكريم". فالمتصفح لآيات هذا النص يتنبه ببسر إلى شرعية الاختلاف وواقعيته، بل إلى حتمية التنوع ومشروعية التعدد في حياة الإنسانية. وقد كان القرآن بيانا للاختلاف واضحا وشرعية لفهم الاختلاف وتدبيره وهو اختلاف أصله في العالم السماوي تمرد إبليس على الرب واقتراف آدم للمحذور عند أكله من الشجرة المحرمة. ثم استشرى الاختلاف على سطح البسيطة حتى أضحي سنة كونية. كما قدم القرآن أيضا منهجا

90 - علي حرب، نقد الحقيقة، ص.35.

91 - النحل 16: 125.

92 - العنكبوت 29: 46.

93 - آل عمران 3: 159.

94 - انظر البقرة 2: 89 / 91.

واضحاً في التآلف والتعاون والمحبة والتعايش السلمي بين الأمم والشعوب بإشاعة ثقافة التسامح وقبول الآخر المغاير دينياً وحسن التماور معه. باختصار لقد كان "القرآن الكريم" خطاب الاختلاف والائتلاف بامتياز، وإنه لمن الأهمية بمكان الكشف عن هذه المظاهر في عصرنا الراهن الذي احتدت فيه النزعة الطائفية وعلت فيه موجة التكفير فانصرم حبل المودة بين المسلمين ونخر الشر والكره والعدوان جسم الامة الإسلامية بعد أن كانت خير أمة أخرجت للناس.

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة

المصدر: القرآن الكريم، الإمامة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة السابعة 1405هـ.

المراجع

- بن حنيرة (صوفية السحيري)، الجسد والمجتمع، دار محمد علي الحامي، الطبعة الأولى 2008.
- ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت/لبنان، الطبعة الثالثة 1999.
- الجاحظ (عمرو بن بحر)، الرسائل، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت، الطبعة الأولى 1991.
- حرب (علي)، نقد الحقيقة، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1993.
- الرازي (فخر الدين)، مفاتيح الغيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
- السعفي (وحيد)، العجيب والغريب في تفسير القرآن، الأوائل للنشر والتوزيع، سوريا/ دمشق، الطبعة الأولى أيار 2006.
- —، في قراءة الخطاب الديني، نجمة الدراسات والنشر والتوزيع، تونس 2008.
- السوايجي (منجية)، الأنسنة والحوار والتعايش في الإسلام، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنن الرسم، الطبعة الأولى 2008.
- صليبا (جميل)، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت/ لبنان، 1982.
- عبد الباقي (محمد فؤاد)، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت/ لبنان، د.ت.

-الكفوي(أبو البقاء)، الكليات، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت/ لبنان، الطبعة الثانية  
1998.

-لسمر(العروسي)، الجاحظ من الجنسانية إلى الميتاجنسانية، كتابات معاصرة، عدد69.

-المسعودي(حمادي)، فنيات قصص الأنبياء في التراث العربي، مسكلياني للنشر، تونس، الطبعة الأولى  
أوت 2007.

-مسكيني(فتحي)، الشيطان في الديانات السماوية: الصورة والرمز، الحكمة للطباعة والنشر والتوزيع،  
جمهورية مصر العربية، الطبعة الأولى 2014.

-Roland Barthes, Le plaisir de lire, éditions du Seuil,